مجموعة قصصية

غيبوبة

مجموعة قصصية
غيبوبة
تأليف : محمد غنيمة
الإخراج الداخلي : إسلام الحماقي
تصميم الغلاف : محمود حميدو
تدقيق لغوي: ايمن مسعود
مدير النشر: أحمد خطاب
رقم الإيداع: 5530 - 2017
الترقيم الدولى: 978-977-6598-09-6
الطبعة الأولى: 2017
إشراف عام : أحمد عبد الجواد

مؤسسة عابر للنشر والتوزيع

01007677910 - 01111883712

3aberorg@gmail.com

www.3aber.org

عابر 3aber

جميع الحقوق محفوظة، وأى اقتباس أو إعادة طبع أو نشر فى أى صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابى من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

مجموعة قصصية

غيبوبة

محمد غنيمة

إهداء

إلى من تمنّيت أن أراهم
إلى روح جمال حمدان، وأحمس، وأنت.

خبرات الحياة..ليست ما يحدث للإنسان،

بل هي: ما يفعله الإنسان تجاه ما يحدث له.

الدوس هوكسلي

ليل العتمة

"أيها السيدات والسادة، إليكم نبأ عاجل: سوف يتم قطع التيار الكهربائي لمدة أسبوع في كل أرجاء مصر، وذلك اعتبارًا من صباح الغد!!" هكذا أعلنت وسائل الإعلام. كان لهذا النبأ وقعٌ حادٌّ على مسامع المشاهدين، وكان أكثر من تأثر بهذا الخبر السيد إبراهيم؛ فقد أصابه بالكثير من الإحباط، وارتمى في أحد أركان غرفته؛ يفكّر في الأمر، ويحدّث نفسَه قائلًا: "إن الأمر جدُّ خطير، كيف سأستطيع التعايش والتأقلم في هذا الأسبوع؟! كيف يستطيع الإنسان أن يعيش بدون كهرباء؟ وكيف سيعمل؟ وكيف؟ وكيف؟ كل شيء الآن مُدار بالطاقة الكهربائية، ثم تنَبَّه في ذعر، وقال واضعًا يده على وجنتيه: "يا للمصيبة! إذا استمر الأمرُ هكذا طويلًا، ولم تستطع الحكومة أن تحل هذه الأزمة في سرعة وإنجاز، سوف يبدأ العالم في الانهيار شيئًا فشيئًا، وبمرور

الوقت، سوف يتحول العالم إلى سراب، وعندها، يكون ما تنبأت به الأفلام الأمريكية صحيحًا.

بدأ يفكرُ فيما يستطيع أن يفعل حيالَ الأمر؛ لعله يعتمد على نفسه.. بدأ يحرك عصاه يمينًا ويسارًا، ثم قفزت في عقله فكرة، وبدأ يتساءل عن مصدر جديد ونظيف للطاقة؛ يستطيع أن يحل تلك الأزمة.. صمت قليلًا، ثم ضرب بعصاه بقوة على الأرض، وقال: الشمس.. يا لها من مصدرٍ متجدد ونظيف للطاقة! نعم، إنها الطاقة الشمسية؛ فقد أجريت العديد من المحاولات في استخدامها.. وبها سوف تُحَلّ كلُّ المشكلات الناجمة عن انقطاع التيار الكهربائي.. بعد برهة، أدرك أنه لا يستطيع أن يستخدم الطاقة الشمسية ليلًا، وقال: حتى لو استطعت أن أوفّر بعضًا منها ليستخدم ليلًا، فإنها لا تكفي لإنارة الليل فقط.. بدأ ينتابه الشعور القديم: الضيق، ثم بدأ يفكر في حل مشكلة الليل..

ضرب بعصاه مرة أخرى، وقال: "لو أنني استخدمتُ الطاقة المنبعثة من الشمس صباحًا، فلم لا أستخدم الطاقة المماثلة من القمر، وبهذا أكون قد استطعت حل هذه الأزمة

ليلًا ونهارًا؟ وفي صوت ينتابه التفاؤل والفرح، نادى على ابنته مريم -الأستاذة بمركز بحوث الطاقة الذرية والمتخصصة في تجارب استخدام الطاقة الشمسية-:

- مريم..

- نعم أبي..

اتجهت مريم مسرعة إلى أبيها؛ لعل سوءًا حدث له.. هدَّأها:

- لا تخافي؛ أنا بخير..

بدأ يسرد عليها فكرته، وهي تنصت وتستمع، حتى انفجرت في البكاء، وقالت:

- أبي، بالله عليك.. يكفي هذا.. أنت كفيف.. أنت كفيف.. أنت كفيف.

* * *

غيبوبة

جلس سمير يتفقد ما حوله، فقد كان في غيبوبة استمرت لأكثر من عشرة أعوام، ليصحو على عالم لا يعرفه! عالم خرجت فيه الحياة من وضع بشري إلى وضع رقمي! فكل شيء أمامه معقد، لا يري شيئًا أمامه سوى بضعة أجهزة رقمية لا يعرف التعامل معها، ولم يسمعْ عنها من قبل، ولم يكن يتوقع في يوم من الأيام أن يصل التقدم إلى هذه الدرجة.

بدأ سمير يتمعّن في ما حوله؛ لعله يستطيع أن يصل لكوب ماء يروي ظمأه.. ولكن كانت صدمته الأولى.. وجد نفسه على سرير يحس به ولكنه لا يراه، فاعتلاه الخوفُ، وشعر بأنه يعيش في كوكب المريخ حيث لا جاذبية...

هنا، دخل عليه إنسان يشبهه تمامًا، وكأنه هو. وإذا به يقول:» أهلًا بك في عالم الأطياف»، فزع «سمير»، وصاح: ما أنت؟ أجاب: لا تخف، أنا قرينك الرقمي، لقد كنت في غيبوبة

استمرت لمدة عشرة أعوام ويومين وتسع ساعات وثلاث عشرة دقيقة وست ثوان و925 فمتو ثانية و70000 منتو فمتو!! فتعجب «سمير» من كيفية معرفته الدقيقة بالوقت، ثم تساءل: أعرف الفمتو ثانية، ولكن ما هو المنتو؟!

ردَّ عليه قرينه: إنها وحدة قياس للوقت اكتشفها أحدُ أحفاد الدكتور زويل؟ فتعجب «سمير» مرة أخرى، وسأله: كيف استطعت معرفة ما أريد قوله؟ فقال له: لقد صُنعتُ منذ أكثر من خمس سنوات مماثلًا لك في كل شيء، وزُوِّدت بكل التجارب التي مرت عليك، وأعرف كل شيء يدور بخلدك، لأنني أنت، وصنعتُ حتى يتعرف الأطباء على مرضك، ومن ثم يعالجونه.. فردَّ «سمير»: إذًا، أنت تعرف ما أريد، وما سوف أريد، وما أكون؟! نعم..نعم.. نعم..نعم.

لكن دعني أسألك سؤالًا: لماذا ترتدي هذه الأشياء التي لا تظهر إلا هيكلك في شكل مضيء؟

– سيدي، إن هذه الملابس مصنوعة من ألياف حديثة تستطيع أن تجدّد نفسها بنفسها، ولا تموت، أي لا تبلى.

وفي هذه الأثناء، صمت قرين سمير، وقال له: إن ابنتك تريد رؤيتك؟ فصاح «سمير»: ابنتي! أين هي؟ دعها تدخل، فإذا بصورتها تقف بين طلابها، وتتحدث الإنجليزية بجامعة سيدني بأستراليا..

- أبي، الحمد لله على شفائك..

- ابنتي، أين أنتِ؟!!

- أنا في عملي يا والدي، أنا مدرسة الآن بجامعة سيدني وسوف أنهي عملي وآتي إليك خلال خمس دقائق.

وأغلقت الخط؛ فسأل سمير قرينه: هل أنا في أستراليا؟ فأجابه وقال: أنت في القاهرة على ضفاف النهر.

لم تمر خمس دقائق، وكانت ابنته لوجينا أمامه فذعر، وبزغت عيناه..

- كيف استطعتِ أن تأتي من قارة إلى أخرى في خمس دقائق؟ أهذا مزاح؟! كيف دخلت المشفى، وصعدتِ السلم؟ وكيف دخلت الغرفة الجرداء هذه؟!

فضحكت: لا تفزع يا أبي، أهلًا بك في عالم الأطياف.

- ما هو ذلك؟!!

- إنه العالم الجديد الذي تستطيعُ من خلاله أن تنقل الأجسام والأشياء عبر الأطياف.. هذا العالمُ الجديد قد اكتشفه المفكرُ عالمنا المصري العظيم محمود الفلكي، فأنت تستطيع أن تصل إلى المريخ بمجرد غمضة عين.

هنا، شعر «سمير» بجفافٍ في حلقه؛ فطلب من ابنته كوبًا من الماء، فنظرت إلى قرين سمير الرقمي؛ فأجابها: حاضر سيدتي. ثم بدأ يخرج من جانب «سمير» لوحةً إلكترونية مثبتة في سريره، وبدأ يضغطُ على بعض الأزرار الإلكترونية؛ شعر «سمير» بأن ظمأه بدأ يذوب هُنَيهة بهُنَيهة. نظر «سمير» بتعجبٍ على اللوحة الإلكترونية، فوجد المياه تتسرب إلى جسده، كعملية تحميلٍ من على الشبكة العنكبوتية. هنا، شعر «سمير» بغثيان، وطلب من ابنته قسطًا من الراحة، راح في غيبوبة أخرى، ولا ندري متى سوف يفيق ثانية.

* * *

من جُنَّ بالحب.. فهو عاقل، ومن جُنَّ بغيره..
فهو مجنون.

شكسبير

غفوة

لم يستطع تحويل ناظريه عنها، شيء ما أغابه عن الوعي، تسمرت قدماه، فتح فاه، لم يرَ فتاة بهذا الجمال قط، كأنها أفروديت أو كليوباترا قد بُعثت من جديد، أفاقه صوت العربات، ضرب بكفيه على أمِّ رأسه، سارَ يفكر بها، تساءل.. هل هي فتاة حقًّا؟ أم هي حورية من الحور؟ لا.. لا.. لا، إنها فتاة حقًّا، لقد كانت تنظر إليَّ في تعجب شديد، مَن هي تلك الفتاة؟! إني أعرفها جيدًا، ولكنني لم أتخيل أن أراها في الواقع، إنها فتاة أحلامي التي أراها كل ليلة في أحلامي. نعم، إنها دائمًا ما تغزو حلمي. تنبَّه قائلًا: لابد أنني في حلم الآن، إنها الآن تغزو يقظتي.

عاد إلى رشده، وجد نفسه على شاطئ الأزاريطة، ما الذي أتى بي إلى هنا؟ ضرب رأسه ثانية متذكرًا موعده مع أصدقائه بسينما أمير. إنها السادسة والربع، لابد أن العرض

بدأ، صدمته سيارة، ارتمى على اليابسة، ولكنه وقف سليمًا، سبَّه السائق وذهب، أصلح هندامه، أشار إلى سيارة أجرة، طلب من السائق الذهاب إلى السينما، جلس بالكرسي الخلفي، ذهب في غفوة، بدأ يفكر بها. إنها الحسناء التي أراها في أحلامي، كيف صارت حقيقة؟ هل هذا زمن الأحلام؟ لا.. لا.. لا بد أنني أهذي. سمع السائق يصيح.. أستاذ، أستاذ، ها قد وصلنا. أخرج من جيبه عشرين جنيهًا، ونزل مسرعًا متجهًا للسينما، لم ينتظر المتبقي من النقود. لقد كان خجلًا من السائق، رآه أصدقاؤه، أشاروا إليه.. هنا، لم يبدأ العرض بعد. سألوه: أين كنت؟ ولماذا تأخرت؟ أجابهم: إنه الازدحام، وبدأ العرض. أُغلقت كلُّ الأنوار، بدأت الشاشة تزدهر وتتلون بأسماء أبطال الفيلم، وما أن بدأ الفيلم حتى ذهب في «غفوة» أخرى. نعم، رآها ثانية، اقتربت منه بزيها السماوي المزهر بألوان قوس قزح، الذي ينبع منه عبقُ العطور الفرنسية القديمة، ثم نظرت إليه، وقالت: «غدًا نلتقي» ثم تلاشت شيئًا فشيئًا، فصاح مرددًا: من أنتِ؟! من أنتِ؟! هزَّه صديقه، وقال: ماذا بك؟ أفاق، وأدرك ما سبَّبَه من

إحراجٍ لنفسه ورفاقه، مسح عرقه، وخرج من دار العرض متجهًا إلى منزله. حاول أن ينام، ولكنه لم يستطع، سهر ليله جالسًا على أريكته حتى تبيّن الخط الأبيض في السماء. وجاء موعد العمل، ارتدى بدلته متجهًا لعمله. دخل مكتبه، ليجد صورتها معلقةً في مكتبه، إنها زوجته التي توفيت منذ عاميْن..

* * *

إن أكبر أخطاء الأطباء أنهم يحاولون علاج
الجسد دون العقل، في حين أن العقل والجسد
وجهان لشيء واحد..
فلا ينبغي أن يعالَج أحدُ الوجهين على حدة.

أفلاطون

خياشيم

ضجَّتِ الصحفُ العالمية ووسائلُ الإعلام بفرحةٍ عارمة؛ فقد توصَّل العالم المصري النجيب «نجيب المصري» إلى اختراع أول جهازٍ يستطيع به الإنسانُ العيش في أعماق المحيط؛ حيث كانت الفكرةُ مبنية على أساس «الكيفية التي تعيش بها الأسماك والكائنات البحرية داخل المياه، إنها الخياشيم والشكل الانسيابي»، وبهذا الاختراع حصلَ الدكتور نجيب المصري على جائزة نوبل ليصبح ضمنَ قائمة طويلة من الحاصلين على نفسِ الجائزة من مصر.

كان هذا الاختراع بالنسبة لعلماء الكائنات البحرية بمثابة الفرحة الكبرى، خصوصًا أن هذا الاختراع المتناهي الصغر الذي يُوضع داخلَ الأنف، فيجعلها تأخذُ شكل الخياشيم ثم تبدأ تتشكّل الأطراف على شكل الذيل والزعانف أثناء النزول للماء؛ سوفَ يجعل الكائناتِ البحريةَ سهلةَ الدراسة والبحث.

بدأ الباحث الهندي راچيف يبحثُ في كيفية الوصول إلى الدكتور نجيب، وخلال البحث أوصله أحدُ الأصدقاء المصريّين له، وقابله في أحد أنحاء التحرير، وطلبَ منه أن يكون الشخص رقم 300 الذي تجرى له هذه العملية، فقد كان يفكر في مراقبة أسماك معينة عن قرب، كما كان يحلمُ بالعيش في أعماق المحيط، لم يتردد الدكتور نجيب في الموافقة على طلب راچيف، ولكنه اشترطَ عليه أن يخصِّص نتيجة البحث لوكالة البحار المصرية، فلم يترددْ راچيف في قبول الطلب، خصوصًا بسبب سمعة الوكالة المصرية في دراسة الكائنات البحرية، كما أنها خرَّجت الكثيرَ من العلماء الحاصلين على أعلى المراتب العلمية والفخرية.

حدَّد الدكتور نجيب وراچيف مكانَ وموعد إجراءِ العملية، وكان المحيط الهندي هو المكان. وبعد خمسة أيام، تم إجراء العملية، وتم وضع الجهاز داخل أنف راچيف، ثم وضع أحدُ المتخصصين جهازًا منظمًا للتنفس؛ حتى لا تحدث أي مضاعفات له. أفاقَ الباحث، وصفَّق الجميعُ. وبعد ساعتين، أراد النزولَ للماء، وتجربة جهاز نجيب.

قفز راچيف بالماء، وتعمَّق وتعمَّقَ، حتى وصل إلى أعماق الحوت.كان شعورُه لا يوصف وهو يتعمق ويرى الأسماك من حوله دون شيء يحمله أو أي قيود؛ فقد شعرَ بما تعيشه الأسماك، ثم بدأ التفكيرَ في المعدات، ولوازمه التي يستطيع أن يعيش بها لمدة أسبوع.

بدأ في الصعود شيئًا فشيئًا، حتى كادت رأسُه ملامسةَ سطح المياه؛ ولكنه لم يستطع التنفس، حاول مرة أخرى ولكنه كاد أن يموت؛ حيث شعرَ برجفةٍ شديدة تمرُّ عبر جسده. هنا، علم وتيقَّن أن لم يعد إنسانًا، بل أصبح...

وجاء السؤال.. كيف سيستطيع أن يعيش تحت الماء؟ وكيف سيبني لنفسه منزلًا يلتجأ إليه إذا أراد الراحة؟ وكيف، وما سيأكل؟ وكيف سيقضي حاجته؟ وكيف؟ وكيف؟ وكيف؟...

* * *

المرء لا يتأثر بالأحداث، والأشياء..
وإنما بفكرته عن الأحداث والأشياء.

أبكتيتوس

الجلسة

ضاقتْ أنفاسه، حدّقت عيناه، نزف عرقًا، كاد أن يبكي، شعر بدوار شديد، لم يستطع الكلام، كُلُّ ما كان يفعله هو أن يتذكر ما فعله لأخيه؛ يتذكره وهو صغيرٌ، كيف ترك كلَّ ما بيده لأجله! كيف أخرج ما بجيبه له! كيف عاش فقط لأجله! وهو الآن يطالبه بما ليس له، يطالبه بأخذ نصفِ ماله، الذي جمعه بعرقه، وعرق أولاده...

الأصوات تتعالى، الكلماتُ كالحجارة يقذفها المجتمعون بقلبه، تحوله من مربٍّ فاضل إلى شيطانٍ قاسٍ، تحوَّل من أبٍ حنون إلى سارقٍ وجاحد ومجرم...

بدأ ينظر إلى الجالسين في هذه الجلسة العرفية الظالمة، التي تحاكمه على إنسانيته. ذهب نظره إلى عبد السلام، ودقق به، وقال في نفسه.. ألم يتذكر كيف تركت الجامعة من أجله! مرَّر نظره في الجالسين؛ ليجد شخصًا لم يعرفه قط،

ولم يرَه طوال عمره، ثم تساءل.. كيف دخل بيتي ليحاكمني، لم يستطع النظر إلى الآخرين، وبدأ يحدِّث نفسه، ويقول.. ما هذا الهراء؟ هل أتيتم كي تحاكموني؟ وهنا، أمسك أحد الحاضرين يده، وقال له: «تعيش وتفتكر»؛ لقد كان أخوك شابًّا محترمًا، وأنت أكثر احترامًا حتى تحيي ذكرى وفاته.

وهنا، أدرك أن أخاه قد توفي منذ خمس سنوات...

* * *

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ

قرءان كريم

المتاهة

لا يستطيع الحراك؛ فقط يسمع ويرى ويتكلم في تلعثُم. يرى مكانًا لم يكن يتخيله، ويسمع أصواتًا أعذبَ من أصوات الطيور. فجأة، تنقلبُ الآية لتتبدل الأصوات العذبة بأصوات يقشعر لها، وتكاد تمزق أطرافه وتكسرها، ولا يستطيع حتى وضع يديه على أذنيه؛ ليخفف من وقع هذه الأصوات اللئيمة، ثم تنتهي الأصوات، يدرك أنفاسه، وما يلبث الأمرُ حتى يتبدل المكان، ويصبح مقفرًا مرعبًا مخيفًا، يتمنى الموت حتى تنتهي رؤياه...

دخل عليه رجلان، لم يرَ تفاصيل وجههما من قبل؛ ارتعد، وحدقت عيناه، أهابه الموقف، بدأ بسؤاله عن حياته، وعن كل شيء يعلمه. تلعثم في إجابته، ولكنه أجاب، ولا يدري ماذا قال.. لم يستطعِ التفكيرَ في الأسئلة الموجهة إليه، ولكنَّ لسانَه نطق دون أن يحركه..

فسألَ نفسه: إلى متى سوف يدوم هذا الحال؟! هل ستدومُ حالته المفرحة؟ أم حالته المزعجة؟ إنه بين الموت والحياة، إنه في قبره يُسأل...

* * *

لم يكترثْ كثيرًا لكيفية موته،
ولكنه كان يجدُ الموتَ من أجل مَن يحب
طريقةً جيدةً للموت.

العزاء

لم يكترثْ كثيرًا لكيفية موته، ولكنه كان يجدُ الموت من أجْل من يحبُّ طريقةً جيدة للموت. مات أخوه الذي لم يعرف غيره. كان الوحيدَ الذي يفهمه ويقتنع به، هو أيضًا الذي ربّاه وعلّمه، وكان هذا الطريق غائرًا في الوعورة...

أصبحَ الآن بلا شيء، بلا أحدٍ يفهمه أو يتحدث معه. عمره الآن عشرون عامًا، ولكنه لا يستطيع أن يجدَ طريقًا له من دونه، لا يعرف طريقةً يتعايش بها، أو كيف سيجدُ قوتَ يومه! جلس في عزائه يفكر، ويقول لنفسه: أصبحت الآن متجردًا من كل شيء. نظر في وجوه الموجودين: كل العيون دامعة، كل العيون مشفقة عليه، لكنه لا يستطيع حتى أن يبكي. فقط ينظر أمامه في كيفيه عيشه من دونه، إنه لا يستطيع أن يصيح أو يتكلم، إنه أبكم وأصم...

* * *

لن أكونَ حرًّا بالفعل إذا سلبتُ أي إنسان حريتَه؛ لأنَّ كلًّا من الظالم والمظلوم يفقدان إنسانيتهما.

نيلسون مانديلا

النهاية

أعلنت وكالة الفضاء الأمريكية ناسا NASA أن المحيطين المتجمدين: الشمالي والجنوبي في طريقهما إلى الذوبان بسبب الارتفاع الشديد الذي حدث في درجات الحرارة بفعل الاحتباس الحراري الذي نعيشه هذه الأيام. كان وقعُ هذا الإعلان بمثابة النهاية للجنس البشري، فذوبان الجليدِ معناه طغيان الماء على كلّ أنحاء العالم. بدأت الصحفُ الأمريكية والأوربية تحثُّ مواطنيها على التأهب للرحيل إلى القارة الإفريقية، حيث يمكن الابتعاد نسبيًّا عن انجراف وطغيان المياه.

بدأ الرئيسُ الأمريكي يخاطبُ كل رؤساء الدول الإفريقية لاستضافة مواطنيه لديهم، ولكنهم رفضوا؛ كان الانتقام الكبير من العبيد للسادة.. شعر المواطنون الأمريكيون أن الله يعاقبهم فيما فعلوه في القرون الوسطي، وجلبهم للعبيد من القارة السمراء. ولكن سرعان ما وافق زعماء القارة السمراء على الاستضافة، حتى يجدوا حلًّا لهذه الكارثة التي تؤدي إلى النهاية حتمًا.

بدأت الصحف الغربية تحث مواطنيها على الرحيل في شكلٍ منظَّم، وطالبتهم السلطات بأخذ حيواناتهم الأليفة معهم، علَّ هذه الحيوانات لا تنقرض..

اكتظَّت المطارات، العالم الآن في رعبٍ، اشتعلت الفوضى، الرعبُ أكثر مما يتخيله البشر.. عملت المطارات بكامل طاقتها.. شعر خالدُ بأن فيلم النهاية لتوم كروز يتحقق الآن، ثم صاح.. إن الله سوف يعذبنا مثلما فعل بقوم عاد وثمود!!

ركع خالدُ ساجدًا على الأرض يطلب الصفح من ربه؛ عله يجد لنفسه مكانًا في الجنة التي وعد الله المتقين، وبدأ يردد: لمن الملك اليوم؟ لمن الملك اليوم؟! لمن الملك اليوم؟!!

ظهر الرئيس الأمريكي على التلفاز، يقول: "أبناء جنسي، إنها النهاية حتمًا.. لقد تضخّم قرص الشمس، وحتمًا سوف ينهار كوكب الأرض والمجرة كلها!"

كانت هذه النهاية.. ليست نهاية الأرض والمجرة، وإنما هي نهاية للفيلم المصري الذي يتكلم عن نهاية الأرض.

* * *

العقل.. هو صانع كل أمر ناجح،
واللسان هو المعبر عن الفكرة التي صنعها
العقل.

إخناتون

المُقيد

سكن في أحد أركان غرفته، لملم كل أطرافه، طوى ركبتيه، أخذ ينظر في ترقب، يعلم أن شيئًا ما سوف يحدث له. دخل عليه أبوه وبعض أصدقائه القدامى، نظر إليهم في دهشة وصاح: ماذا تريدون؟ لماذا أتيتم؟! هل تريدون قتلي؟! أجابه أحدهم: لا.. لا.. لا. جئنا نأخذك في نزهة، لا تخف. اشتد غيظه، يعلم -تمامًا- ماذا يريدون، لقد أتى بهم والده في مهمة أخذه إلى مشفى الأمراض النفسية والعصبية.

بدأ يتشبث بكل ما تستطيع يداه أو قدماه، ولكنهم كثرة؛ قيدوه ثم حملوه إلى العربة، حاول الهرب لكن دون جدوى، أحكموا عليه الوثاق، حاول مرات ومرات لكن دون فائدة. وإذا بيد أبيه تصفعه على وجهه صفعة جعلت أصدقاءه يشتد غيظهم من أبيه، فتركوا وثاقه، وصاحوا في وجهه: لم تصفعه؟ إنه مقيد؟!

- ماذا بك؟!

بدأ الجميع يتشكك في أمر صاحبهم، هل هو -بالفعل- مجنون؟ أم أن أباه يريد أن يجعله مجنونًا؛ ليحصل على أمواله؟ ولكن سرعان ما زال هذا التفكيرُ من رأسهم بعدما سمعوا كلَّ الصرخات والسباب التي أهالها عليهم.. صمت فجأة وهو ينظر إلى عين أبيه، كأنه يستجير اللهَ منه. شعر الجميعُ بمأساة صاحبهم.. إنه زميلهم "حسن" الذي طالما أعانهم على حلِّ كل الأمور الصعبة التي تتناولها دراستهم، إنه الدكتور "حسن" الذي تحوَّل من طبيبٍ إلى مريض بفعل قرص مهدِّئ اعتاد عليه؛ فأصبح مدمنًا فمجنونًا.

* * *

من علامة الصديق.. أن يكون لصديق
صديقه صديقًا.. ولعدو صديقه عدوًّا.
وليس لي بصاحب ولا صديق من لا يكون
لك محبًّا.

كليلة ودمنة

قميص الأفراح

لم يسمعوا صوته منذ شهور، ولكنه تعوَّد أن يهاتفهم مرة على الأقل أسبوعيًّا. إنَّه صديقهم الحميم، طيب القلب، صابر، شاركهم كلَّ الأيام الخوالي. حاول الاتصال به، لكن دون جدوى، انتظروا حتى يفاجئوه بزيارتهم. إنه يسكن بإحدى قرى محافظة البحيرة، لن يكون العرس عرسًا من دونه، إنه صديقهم المخلص.

تعوَّدوا على أن يشاركوا بعضًا قميص الأفراح، هذا القميص قد تشاركوا في شرائه..فقط ليصاحبهم في أفراحهم. اعتادوا على ارتدائه تباعًا، وجاء الدور على صاحبهم.

تجمع الأصدقاء، وركبوا القطار إلى صاحبهم، وأخذوا يتحدثون عن أيامهم الجميلة معًا..

وصلوا إلى منزل صاحبهم، ليجدوا صوان عزائه!! وجدوا صاحبهم وقد رحل، فقدوا أجمل ما كانوا يملكون.

* * *

هناك أربعةُ علوم، تقف الرياضيات في طليعتها كالبوابة والمفتاح.

فرانسيس بيكون

المأسور

مات جدُّه منذ حين، تركه وحيدًا في هذه الدنيا، لم يبقَ له من حياته سوى أوهامه وأحلامه البائسة في تملّك الكون، وتسخير جنّ المصباح، لم يبقَ له شيء من أسرته سوى بعض المقتنيات العريقة وتلك الغرفة المغلقة، التي لم يفتح بابها منذ أن بدأت عيناه في الرؤية، هي غرفةٌ بابُها يشبه أبواب القصور التي صورتها أقاصيص ألف ليلة وليلة، يعلم تمامًا أنها كنز وحدها، وبها كنز العائلة – لكنها ملعونة- هكذا أخبره جدُّه وجدته عنها، وكل فرد من أفراد أسرته السابقين، تذكر جيدًا حينما كانت ترهبه جدَّتُه، وتقول:

– إياك أن تطأ قدماك هذا القصر الملعون.. إياك.. إياك...

بدأ يفكر ويقول: كيف سأعيش مع هذا القصر؟! ما الذي بداخله؟ وما هذا القفل النحاسي الضخم الذي يوصد أذرع هذه الغرفة؟ صمت قليلًا، ثم قررَ أن يفتح هذا الباب ليعلم ما بداخله.. أصبح الأمر بالنسبة إليه مُلحًّا، ضروريًّا.

بدأ يطرق على القفل النحاسي بكل ما أوتي من قوة، لا يستطيع، القفل كأنه مصنوع من مادة غير موجودة في عالمه! أتى بكل الأدوات الحادة التي وجدها بمنزله، ولكن دون جدوى.

اعتراه الضيق، وقال: لابد من فتح هذا الكهف اللعين -هذا الكهف الذي يجعلني أسيرًا للخوف-، تذكر ذاك المفتاح الفضي الذي رأى جده يحفظه في علبه المصحف المذهبة، والمنقوش عليها بعضُ الآيات القرآنية، والمحفورة على أطراف العلبة.

اقتنص المفتاح، وذهب به إلى الغرفة، وضعه في القفل النحاسي، ففُتح الباب.. تردد في الدخول، ولكنه أيقن أن مصيره قد تعلق بتلك الغرفة، دخل الغرفة.. إنها معتمة، ليس بها مصدرٌ للإضاءة، خرج وجاء بكشاف كهربائي، دخل ثانية.. الغرفة واسعة، تتوسطها مبخرة مغربية كبيرة، وكأنها قنديل من قناديل الدولة العثمانية، الحوائط متشابكة بخيوط العنكبوت، الرائحة كالقبر، لا يستطيع الجهاز التنفسي تحمُّلها، الجدران مكتظة بالكتب وحواملها،

عناوين الكتب مكتوبة بلغة مختلفة، ليست الإنجليزية ولا الفرنسية ولا حتى الصينية، إنها لغة غريبة، وكأنها حضارة من عالم آخر، لا يعرفه ولم يسمع عنه يومًا ما. دقَّق في كل الكتب، لم يجد إلا عنوانًا واحدًا باللغة العربية، أخرج الكتاب الضخم الذي يشبه لائحة التدوين في الدفتر خانة المصرية، أزال الترابَ من فوقه، جلس في آخر الغرفة، وبدأ يقرأ:

- شم شر سط مطس

هكذا كانت قراءته، أدرك أنه يقرأ بالمقلوب، لأن الحروف دون نقاط، وكتبت بحروف مقلوبة، توغَّل في القراءة حتى وصل إلى نهاية الصفحة الأولى، انطفأ نور الكشاف، وسمع صوتًا كالرعد ينادي:

- مَن المتجرأ على إيقاظ ملكة المكان وسلطانة القوى، ومخيفة ملوك الجان؟!

ارتعب، وارتعشت أوصاله، واستشعر الخوف يسري في وجدانه، ولم يستطع الكلام، فقط تلعثم..

ضحكت ملكة المكان، وقالت: من أنت يا إنسان؟

حاول جاهدًا أن ينطق بآية الكرسي، أو حتى يقرأ شيئًا يخرجه من هذا الموقف، ولكن دون جدوى، أينما ذهب أدرك بأن مصيره قد تعلق بها، وبدأ الحديث:

- من أنت؟

صاحت: لماذا أيقظتني؟ ماذا تريد؟

- لا أريد شيئًا.

- إذًا، اصرفني.

- لا أعرف.

- اصرفني.

- لا أعرف.. هلّا تنتظرينني حتى أقرأ بعض هذه الطلاسم، ليمكنني أن أصرفك؟

هكذا علمت الجنية بأن صاحبها لا يقوى على فعل شيء، وأنها سوف تصبح أسيرته، وليس هو من سيصبح أسيرها!

لبسته كما يلبس الرجل معطفه، وبدأ يفعل ما تريد، حتى أنه نام في المقابر، واجتمع عليه الناس، ووضعوه في

مشفى المجانين. وهنا، علا صوت المذياع، يقول: "وهنا، أدرك شهرزاد الصباح، فصمتت عن الكلام.. وبهذا تنتهي الحلقة السادسة والستون بعد المائة الرابعة من ليالي ألف ليلة وليلة"!

* * *

معلَّقٌ أنا على مشانق الصباح.. وجبهتي
بالموت محنيَّة..
لأنني لم أحْنها.. حيَّة.

أمل دنقل

الأتوبيس

دائمًا ما يعيش على الهامش، يمشي في خط مستقيم، يقبع بنفسه داخل جدران خوفه، يبتعد تمامًا عما يسمى سياسة، لم يفهم أي شيء مما حدث لمجتمعه، وما يحدث حوله، فرح بشدة عندما قامت الثورة، لا لأنه يريدها ويجدها طريق الخلاص، أو أنها المحققُ لآماله وأحلامه، بل لأنها كانت مصدرًا لفرح أبنائه وأصدقائه وجيرانه، وكل من حوله.

اليوم فرحته الكبرى؛ سوف يحصل ابنه على شهادة الماجستير في القانون، نعم بالتأكيد سوف يحصل عليها؛ إنه طالب مجتهد مجدٌّ. أخذ يجهز نفسه وعائلته، ليذهبوا إلى الجامعة -توتره واضح- بدأ في ارتداء بدلته الزرقاء وزيَّنها برابطة عنق جميلة.. هذه ثاني مرة في حياته يرتدي مثل هذا الزي: الأولى في زواجه، وهذه الثانية.

اليوم يوم إنصافه، اليوم يوم فرحه. سمع وزير العدل وبعض التابعين له، يسبّون ابنه ويقللون منه دون أن تقترف يداه إثمًا؛ شعر بضيقٍ يجوب أنفاسه، ولكنه لم يعبأ كثيرًا؛ هو يعلم بأن ابنه سيكون ذا شأن رغمًا عن كل البشر، وهذا ليس عدل البشر بل الخالق المعبود. لم يتوقف كثيرًا عند كلمات وزير العدل الذي نسي بأنه هو الآخر تحت ميزان العادل الذي عرشُه في أعلى السماوات. لمْلمَ شمل عائلته المتناثرة في أطراف المدينة، صورة ابنه بلباس التكريم العلمي محفورة في قلبه.

الإسكندرية مدينة الزحام، وشوارع المنتزه هي الأكثر ازدحامًا، تمسك بأفراد أسرته في ساحة العبور، استقر على الرصيف، انتظر كثيرًا حتى يأتيه تاكسي أو ميكروباص، ولكن لم يمنّ عليه الطريق سوى بأتوبيس.

قفز إلى أتوبيس المنشية- المندرة، ذلك الأتوبيس ذي الطابقين والملون بالأحمر، أخذ يجمع أفراد أسرته، وصعدا الطابق الأول، واستقر في الثاني، تلفت على من حوله، كلُّ الركاب في هندام تام، بدأت الحركة ولكنها حركة السلحفاة، حتى

وصل الأتوبيس إلى محطته الأولى، بدأ منصور ينظر للأسفل حتى يرى الصاعدين والفارّين من الأتوبيس، لمح شابًّا وسيمَ الملامح، قوي البنية يتصعد درجات السلم حتى استقر في نفس الدور الذي تركن به عائلته، جلس الشاب في كرسي يقبع في نهاية الأتوبيس، لا يعلم لماذا ظل ينظر إليه! هل لأنه شاب يشبه ابنه تمامًا؟ أما لماذا؟ لا يعلم. الوقت قد أزف، الزحام يجعل الرجل يخرج من عباءة هدوئه، بدأ في التوتر، كل شيء بدأ يسوَدّ أمامه، أصبح لا يرى شيئًا أمامه سوى الزحام، هدَّأته عائلته. وفي وسط طريق البحر محطة، نظر إلى شابٍّ وهو ينزل مسرعًا، ولكنه قد نسى حقيبته، أخذ يصرخ في الشاب، ولكن دون جدوى. الحقيبة في يده، ماذا يفعل؟ لا يدري بدأ يفتح الحقيبة التي كان الشاب يعلقها خلف ظهره، ولكنها كانت القنبلة؛ فانفجرت، وانفجرت معها أحلامه، وآمال ابنه.

* * *

يعيش القانع الراضي مستريحًا، مطمئنًا..
وذو الحرص والشَّرَه يعيش ما عاش في تعبٍ
ونصب.

بيدبا الهندي

العرس

الأنوار تضيء المدينة بألوان قوس قزح، العربات تركض في اتجاه دائري، السيارات مزركشة بباقات الزهور الأرجوانية، الأنغام تبهج العرس، الليل منار على أطراف القناطر، ذلك الحاجز الذي يفصل البحر عن النهر، المكان ذو وضع عبقري، الملكُ يترجل من سيارة زفافه ويصطحب مليكته في زهو شديد. يبدأ حياته الجديدة، ورحلة عمره عبر رحلة نيليّة، هكذا هي عادات الفرح في المدينة النهرية، تلونت السماء بألعاب نارية رسمت اسميهما في قلب أحمر، وصلا إلى الضفة الأخرى، التقطا صورًا تذكارية، تعبا من التصفيق والغناء، جاء وقت الذهاب لاعتلاء الكوشة.

في القاعة، ينتظر مجدي أخته العروس، صاحت السيارة معلنة عن قدوم العروسين، هّم مجدي يصطحب أخته وعريسها إلى الكوشة، قبَّلها على جبينها، وراح في سبات عميق. تذكر

معاناته وأمه "الحاجة فاطمة" في تجهيز عشها، ترقرقت عيناه بالدموع، أخذ يدقق بها كثيرًا. بدأت لحظات حياتهما تُعرض في ذهنه، وكان مصور القاعة يعرضها على تلفازه.

أحست ليلى شقيقته بأنه وادعها الأخير، ليس لأنها تتزوج، ولكن لأنها تعلم جيدًا بأن أخاها يخبّئ شيئًا في طيَّات صدره، يخفيه عن كل الحاضرين، حتى عن أمه.

أدركت الحاجة فاطمة نفسَ إحساس ابنتها، وأمسكت يد ابنها، وقالت له: "أبقاك الله لنا"، وأخذته بين أحضانها؛ انفجر في البكاء.. لم تره أمه في هذه الحالة قط، ولكنها تعلم أنه يخفي عنها أمرًا، تعلم أنه قادم على فعل شيء خارج عن إرادته، مسحت أمه دموعَه، ولكن دون جدوى، ظل يبكي حتى لاحظه نبيل -صديقه النبيل-. أخرجه خارج نطاق الصخب، وسار معه دون حديث، تركه يمسح أوجاعه، وصلا إلى النهر، أفرغ كل طاقته في البكاء، وفي عتمة الليل، وعلى قارعة الطريق، لمحا سيدةً عجوزًا تجلس غير منشغلة بالأصوات التي تتعالى سبًّا لها، ولا تلقي لها بالًا. فقط تنظر إلى النهر، أقبلا إليها فعرفتهما، وبدأت تقذفهم بحجارة، إنها

أم سعد، صديقهم الذي غاب في رحلة مأساوية. سعد الشاب الطيب النقي، والذي لم يسمعوا عنه شيئًا منذ اثنتي عشرة سنة. إنه صاحبهم المفقود في غياهب البحر!!

لماذا تقف هنا في وسط هذا الغيم؟ سأل مجدي.

إنها تنتظر ابنها الغائب، تعلم أنه ليس بسندباد كي ينجو، وليس ابنها صفحة طويت بين أوراق ألف ليلة وليلة، ولكن قلب الأم، الذي دائمًا ما يتشبث بالأمل! أجاب سعد.

اقتربا منها، ابتعدت عنهما، وأخذت ترجُمهما كالشياطين، وتصيح: "أنتما السبب، أنتما السبب".

نظر مجدي لصديقه نظرةً حادة، وقال: ما الأمر؟!

أجاب صديقه: إنها دائمًا تظن أننا السبب فيما حدث لابنها، لأننا تركناه يذهب في الرحلة البائسة المميتة.

تركها مجدي تقذفهما حتى سالت الدماء من ساقه، فاهتزت السيدة وسارعت في تضميد جرحه؛ حاول مجدي تهدئتها، أو حتى أن يأخذها إلى منزلها، ولكنها أبت وصممت على البقاء.

* * *

نشعر بالأرق لما حولنا من تغيير مستمر،
ولكن سنشعر بالذعر إذا توقف هذا التغيير.

ليمان بريسن

دون اتجاه

جمالها حاكم يأمر، فتنتها تعادل نفرتيتي، لكن ملابسها رثة، يداها متقشفتان، إذا قرأتهما ترى خريطة حياتها. إنه العمل المضني! هي ريفية التحمت بها أفكار المسؤولية منذ بدأت ضفائرها تعقد، تفاصيل السرداب التي تعيش به تراها منقوشة على ملابسها.. منذ النظرة الأولى، تعلم جيدًا أنها تنام على أرض جبلية، التراب زينتها، والخيش حلتها، والضمير ثروتها.

رأيتها تمشي بزهو المنتصر، استطاعت أن تقتنص من الحياة زوجين من الأحذية ذات الورود البلاستيكية، تمشي بخطوات وئيدة، تحاول أن تجعل المارّة يلتفتون إلى ما حصلت علي؛ فهي دائمًا ما تحاول الوصول إلى ما يصبو إليه قلبها.

لا أعلم حتى إن كانت مظلومة أم غير مظلومة.. ولكني تفاجأت حينما قرأت اسمها بقائمة الغارقين في مركب

الموت! انتابني إحساس بالضيق، فاضت عيني دمعًا، أتذكر ذلك اليوم الذي رمقتها فيه من زجاج تلك السيارة العتيقة، تمشي بثبات؛ تحاول جاهدة الاختباء من أعين الناس، أشعر بها تخاف حتى من الأرض التي تطأ عليها قدماها، تهرول دون اتجاه، تترنح مسرعة فقط تحاول الهروب بجسدها من تلك البقعة، ما أصعب أن يحارب الشخصُ نفسه؛ يتوقف ساعتها العقل، ولا يرى على البسيطة سوى ما هو مخيف، حتى وإن كان هذا العملاق هرَّةً.

ساقَهَا خوفُها من الناس إلى أن تمشي في الطريق الدائري، في ذلك المدى الذي لا يبحر فيه إلا الآلات ذوي العجلات السريعة. شعرتُ بها لأنها جارتي، وتقطن في بلدتي، ويا له من غريب أن تصل إلى النقطة التي تقطعها السيارات في غضون ساعة.

إن حالتها تسمح لها أن تقدم على أشياء خارج حدود المعقول والعقل! كم استرعتني حالتها، أتذكر دومًا معاناتها في تلك الحياة: كم تحمَّلت ما لا يطاق، كي تحمي عائلتها، أتذكرها جيدًا وعيناها تفيض دمعًا، وهي تحكي لوالدتي عن

فاجعتها في زوجها، حينما قرر أن يعقد عليها، وأن يمهرها بذهبٍ من ذلك النوع الصيني، وهي لا تعي ولا تعلم، كم خدعها هذا الغشّاش! يا له من ألمٍ حينما تحب أشياءك وتجدها زائفة!!

الاتهام بالخيانة، يا له من شعور قاسٍ! ولكن الأقسى حينما يضرب الأبناء آباءهم، ما أقسى أن تُقذف بالخيانة لا من أحد تعرفه، ولكن من أحد حملته بين أحشائك! تُضرب بالسياط ليس من زوجها ولكن من تلكم الأطفال الذين كانوا السبب في وجودهم!! فهل هذا الألم ما جعلها تذهب في رحلة الموت عبر البحر؟ كيف لأميَّة لا تعرف حتى اسم جدها، لا تعرف حتى أن تكتب اسمها، أن تذهب إلى ما وراء البحار؟ هي الآن جسد وليست روحًا، صعدت روحها إلى السماء، وبقيت جسدًا يعذب حتى في قبرها!

* * *

لست أعرف حقيقةً أكثر تشجيعًا من أن للإنسان مقدرةً على إعلاء شأنه عن طريق بذل الجهود، فلو أن إنسانًا سعى إلى أن يحيا الحياة التي تصوَّرها في خياله، فسوف يصادفُ مِن النجاح ما لا يخطر له ببال.

هـ. ثورو

هواجس قلم

اندثرت الكلمات في عقله، يعجز قلمه عن التعبير، تمرُّ الأحرف في جوفه فلا تخرج، ينكسر لسانه، وتتساقط أوراقه، عبثًا يريد أن يكتب، بدأ يلملم أنفاسه المتسارعة، ويفكر كيف ينجو بنفسه من هذه الحالة، يا له من عذاب!

تنتابه الآن ذاكرة النوستالجيا، لم يشعر بنفسه إلا وهو هائمٌ بذاكرته في عالمٍ أحبَّه، عالم شعر فيه بأنه ناجح، تتهافت حوله الأضواء، بدأت شفتاه تتبلل من معين أحلامه الصغير، لم يكن يصدق يومًا أنه بدأ في تحقيق حلمه الصغير، يتذكر جيدًا عندما نُشرت له أولُ قصة في إحدى الصحف القومية، بدأ يشعر بالنشوة، فأصدر لوجهه أمرًا بالابتسام، فتبسم، بل أصابته القهقهة، لابد أنه شعر بالخجل!

تذكر حينما وقف أمام كوخ عم صبحي -كشك الجرائد- الذي اعتبره كوخَ الاستطلاع؛ كان يترقب أن يرى قصته المنشورة، انتظر كثيرًا حتى تأتي سيارة إسعاف حالتِه "عربة توزيع الجرائد المسائية"، أخذ يساعد السائق حتى أمسك بالجريدة، وبدأ يفعل

مثلما فعله جده آدم، متعجلٌ كثيرًا هو، أخذ يقلب الجريدة بشكل غير اعتيادي، لا يري شيئًا، فقط يبحث عن اسمه.

- **أهوه، هيه دي القصة، واسمي أهوه.**

قرأ قصته أكثر من عشر مرات، وكأنه يقرأ لكبار الأدباء، بدأ ينتهي من قراءته التي لم يشعر أبدًا أنه صاحب هذه القصة، وأنه الكاتب. ثم انتابه شعور الفخر واللذة، وبدأ يحرك كتفه، ويسمو برأسه؛ لا بد أنه أحس بأنه أصبح في مصاف العظماء والمبدعين، بل والمفكرين، ثم أخذته روحٌ مغايرة، وانتابته روح الصبيان، وأخذت تتجسد به، حتى أنه جلس بجانب عم صبحي، وبدأ يطارد مشتري الجرائد، ويشير لهم إلى قصته المنشورة، ثم ينتظر أن يغدق عليه القرَّاءُ بالثناء، أو يحس منهم أنهم نالوا شرف مقابلته، ولكن -للأسف- عامله الناسُ على أنه مختل، بالرغم من هندامه. وهنا، استفاق وتذكر بأن نبع التجلي قد أنعم عليه بكتابة ما تذكر!!!

- **يا إلهي، أنا يكتب الآن.**

* * *

ملعونٌ ذلك الرجل الذي يتَّكل على الإنسان..
ويجعل البشرَ ذراعه.

النبي أراميا

أفكار عابثة

سمع خطيب المنبر يصيح، ويتوعد، يتحدث كأنه يوجه كلامه له، يقول: ماذا تشعر لو وضعوا داخل أحشائك كيسًا من التراب؟ كيف ستعيش؟! هل تقوى على ذلك؟ يجب عليك أن تكرم زوجتك، وانظر إلى حالها، تَمعّن مدى تعبها، وهي لا تفعل ذلك إلا بكل حبّ، فلماذا تنهرها؟ لا تغصب أبدًا منها، لا تتكلم إلا خيرًا، ولا تصمت غضبًا.

خرج بشير هائمًا على وجهه، يتأمل الفكرة، ماذا إذا حدث ذلك؟ ماذا إن استبدل بذلك التراب جنينًا حقًّا؟ هل يلد الرجل يومًا؟ إن هذا التقدم أصبح يأتي بكل ما هو خارج عن إطار العقل، هل يأتي اليوم ويحمل الرجل بين أضلعه جنينًا؟ ويصبح أبًا وأمًّا في نفس الوقت؟!

- **يا لها من صدمة حقًّا!! قالها وهو يشعر بالخوف والاشمئزاز.**

لابد أنه شعر بإمكانية حدوث الأمر، ثم شعر بالسخط على التقدم والتكنولوجيا، فبالرغم من كونها صنعت أشياء لم يكن يحلم بها الإنسان، وحتى العقل لم يكن يستوعبها، فعلًا لم يكن يستطيع السابقون أن يتخيلوا هذا العالم الغريب الذي نعيش فيه، فبمجرد نقرة يمكنك أن ترى الأحلام، رغم كل هذا، فإنها في النهاية سوف تُجرّف الطبيعةَ البشرية إذا حدث هذا الوهم الذي يعتريه.

* * *

من السهل أن تكون شجاعًا من مسافة بعيدة

أيوب

مدينة السر

بلغني أيها الملك الرشيد ذو الرأي السديد والعمر المديد، أن الشاطر حسن أخذ مركبه وذهب في رحلة بحرية، ونزل على مدينة الأحلام التي أحبَّها، وألزم نفسه النزول إليها كل عام.. ولكنه وجد المدينة قد تغيرت معالمها، وتبدلت أحوال ساكنيها..

وجد على مدخلها لافتةً مكتوب عليها «مدينة السر» التي كانت قديمًا «مدينة الأحلام» تعجب الشاطر حسن عجبًا شديدًا، وقرر أن يكتشف هذا السر.. تعمق بالمدينة سيرًا، فلم يستطع الكلام مع أحد، واكتشف أن أهل المدينة قد امتنعوا عن الكلام.. فقط يشيرون إلى قصر كبير، معلق على أطرافه شعر فتاة، دخل القصر وقابل مالكه، وسأله: ما الذي حدث للمدينة الجميلة؟! أجابه: لقد ضاع حلم المدينة..

- وما هو حلم المدينة؟

- لقد كان سكان أهل المدينة يحلمون كل يوم بحلم واحد، أما الآن فقد غاب الحلم، وامتنع الناس عن الكلام، ولذلك سموا المدينة بمدينة السر!!

طلب الحاكم من الشاطر حسن أن يبحث معه عن سر غياب الحلم، نزل المدينة فوجد الناس يتقاتلون، حاول أن يصلح بينهم ولكنه فشل! وهنا، شعر بالضيق لأنه لم يستطع أن ينقذ المدينة من عبث سكانها، ولم يعثر عن سر غياب حلمهم.

* * *

محمد علي
الإمبراطور الذي هوى

القلعة عام 1846

اقترب من الثمانين؛ يشعر أن أجله قد حان، جمع رجاله وكبار موظفي دولته على مائدة عشائه بالقلعة؛ طلب منهم أن يردوه إلى الحق.. حاول إقناعهم بأنه لم يعد يعلي شيئًا سوى مصلحة الوطن وإسعاد مواطنيه، وعلى غير عاداته قال:

«إذا كنت آمر أحدكم شفهيًّا أو تحريرًا بقولي له: أَجْرِ المادة الفلانية بهذه الصورة وحصل منه اعتراض علي، وذكّرني وأفادني شفهيًّا أو تحريريًّا بأن المادة المذكورة مضرّ؛ فهذا يكون له امتناني الزائد، وأنا مرخِّص لكم في تلك الرخصة التامة المرة بعد المرة».

لعل هذه الكلمات الغريبة على أسماعهم لم تزدهم إلا خوفًا، لم يكن بهذه السلاسة من قبل، لابد أنها مكيدة جديدة، لم يجد من مجيبٍ.. فقط: أنت ولي النعم، أنت أفندينا، لا تخطئ أبدًا... الأمر أصبح أكثر حيرة بعدما سمعوه يكمل: «لتعلموا أنكم إذا لم تتحولوا عن خصالكم القديمة من الآن فصاعدًا ولم ترجعوا عن طرق المداراة والمواراة، ولم تقولوا الحق في كل شيء، ولم تجتهدوا في طريق الاستواء، ولم تسلكوا سبيل الصواب لصيانة ذات المصلحة... فلابد لي من أن أغتاظ منكم جميعًا، ولما كنت موقنًا بتقدم هذا الوطن العزيز على أي صورة كانت، وملتزمًا فريضته عليّ صرت مجبورًا على قهركم على أن تسلكوا هذا الطريق المستقيم اضطرارًا، مع حرقة كبدي وسيل الدموع من عيني». كلام لاذع وساخر وصريح للغاية، إن لم يكن وقحًا كلَّ الوقاحة. فاستحق معظم الجالسين لقب «أشيك حمار».

مقولته هذه التي جمع قادته وحاشيته ليقولها إنما هي

راسخة في نفسه.. هل تشفي وتثلج صدور الحاضرين؟ هل كان يخاطبهم أم كان يخاطب نفسه؟ هل عاد -فعلًا- لا يبغي من الحياة سوى مصلحة شعبه؟!! أم أحس أن أسطورته أوشكت على الفناء؟ هل عاد يتذكر حمَّام الدماء الذي أساله للمماليك؟ كل الليالي كان يخاطب فيها دهاءه.. يتحدث معه في جلسة بعيدة عن موطن العقول.. دائمًا ما يفاجئ نفسه بأفعاله التي هي بالفعل غابة شائكة من الأفعال المحسوبة، نظمه غير مألوفة، بدأت تنتابه الآن رعشته المعهودة التي طالما تذكّر فيها هذه المذبحة، إنه يتذكر زوجته التي هجرته بسبب فعلته هذه.

القلعة 1847م

أخذ يدقق فيه؛ يتمعَّنه بشكل مريب، لا يعلم ما الذي حدث لهذا الذئب، ما الذي يفعله مولاه! لا يعلم لماذا يتصرف بهذه الطريقة! اعتاد أن يعامله بلينٍ. إنه الآن لا يعرفه، كل شيء تغير، تصرفاته دعته لأن يتساءل: هل هذا أفندينا؟! لا

يستطيع أن يصدق، هل هذا هو الساكن الخانع المرتكن في طرف غرفته، هل هذا محمد علي باشا؟! لا أصدق. إنه هو جسدًا لكن ليس عقلًا. أخذ يتذكر عندما ذاع صيت تلك المشعوذة العاتية التي أرهبت المحروسة بسحرها وأقنعتهم بأنها صاحبة القوى الخفية، وصديقة أسيادنا.. عندها أمر الذئب بربطها بحجارة ورميها بالبحر، تذكر كيف كان جبارًا ثابتًا، وبدلًا من أن يقتنع الشعب بأنها ليست تمتلك قوى عظيمة، فقد تيقن من أن محمد علي يمتلك قوى خارقة، وهو أقوى منها.

في ديوان الغوري يجتمع الغازي إبراهيم، الذي طالما لام أباه على عدم تركه مواصلة انتصاراته وفتوحاته، هو الآن على رأس جلسة يتناقشون في أمور مريبة. انتهت الجلسة، وبعد ساعة، وعلى دقات المنادي، يعلو الآتي:

«إنه نظرًا لمرض محمد علي، فقد تشكَّل مجلسٌ فوق العادة تحت رئاسة إبراهيم باشا؛ لتسيير دفة أعمال الحكومة، واجتمع

الديوان في 24 من شوال بحضور العلماء والمشايخ وأشراف البلد، ومن لزم حضوره من الذوات بديوان الغوري، حيث قرئ على رؤوس الأشهاد الفرمانُ القاضي بتعيين إبراهيم باشا واليًا على مصر، وصدر فرمان التقليد من الباب العالي».

عاد إبراهيم إلى قصره، دخل إلى غرفته، أغلق على نفسه الباب، ظل يخاطب نفسه: كيف يتعامل مع ولي نعمه وأبيه؟ كيف يتعامل في إدارة شؤون البلاد؟ تلك البلاد الضاربة في التاريخ والقديمة قدم الإنسانية نفسها، هل يصبح أباه الثاني؟ بدأت ضحكاته المتقطعة تتعالى، لم تَنْتَبْهُ روحُ السلطة أو يفرح بتقلده على رأس الدولة، ولكنه تذكر أباه حينما أتوا إليه بذاك المصور الفوتوغرافي لتخرج من آلته هذه بعض من الدخان، فيغضب أبوه: ما هذا؟ إنه رجس من عمل الشيطان، اذهب بعيدًا أيها الشيطان!!

الآن، بدأ المرض يسري في عقل وجسد الذئب، فصار لا يعرف أحدًا، ساكنًا في مكانه، شاردًا بذهنه في رحاب

السماوات؛ لعله يتذكر إنجازاته، لعله يبكي على حاله، محكومًا عليه بالنفي داخل جدران ذاكرته، يلمح طيف ابنه طوسون يذكر كيف قدَّم له العون، لعله يتذكر ابنه الذي مات بعد مرضه، لعله يتذكر حينما أعطى مفاتيح الكعبة للسلطان العثماني..

رأس التين 1848م

الآن، أصبح الأمر موجعًا؛ دخل عليه الحجّاب: يا ولي النعم، مات ابنك إبراهيم، مات الغازي، لم يتفهم شيئًا مما قالوه؛ نسى من هو إبراهيم أصلًا، لم يرمق، لم ينظر أساسًا، يسبح في غيبوبةٍ يقظة، يعلم أن ثمة شيئًا كبيرًا يحدث، ولكن لا يستطيع عقله تدبره، مات ابنه الغازي الذي طالما انتصر لإرادته، لعل الدماء التي سُفكت هي التي تؤرقه، تخرجه من عقله، لابد أن موت أغلب أبنائه هو السبب فيما يحدث له، لم يُظهر ضعفًا أبدًا، فهو -دائمًا- ما يتكلم بدهاء، ويتحدث في حكمة، أم أن فقده للجيش

سبب آخر في وعكته.

الآن، عباس حلمي الأول يأتي من الحجاز، كان هاربًا من غريمه إبراهيم باشا في الرأي والمزاج، يأتي الآن بعد ما أوصت لجنة الاثنى عشر بتعيينه على رأس الدولة، فدار الزمان ليصبح الهارب واليًا، ويصبح الحاكم تحت الركام.

رأس التين 1849م

تنتابه الآن ذاكرة المحتضر، يمرّ شريط حياته ويعبر أمام عينيه، تحاصره أفعاله، ينتعش في ذكرى طفولته، يتذكر كيف كان يقتفي أثر أبيه بأن يصبح جنديًا، تذكر عندما كان محجمًا على الذهاب لمصر المحروسة، يتذكر وجه الصوفي ولحيته البيضاء، هذا الذي نبّأه بأن على جبينه النصر، يتذكر عندما ترجموا له كتاب الدهاء «الأمير» لميكيافيللي، فرماه وقال لهم: ما هذا الطفل؟ لم يصل بعد إلى أدنى مستوياتي! إنها الآن نهايته في ذلك القصر، إنه يلفظ أنفاسه الأخيرة بالإسكندرية التي طالما عشقها،

يحبها، تذكره بمعجبه الأوحد نابليون، يتذكر حين حاك خطة لتهريبه من الجزيرة التي نفي إليها «سانت هيلانة».

طالما فكّر مثله، طالما أراد أن يصنع إمبراطورية تفوق الإمبراطوريات العظمى، إنه الآن لا يستطيع حتى تدبّر أمر نفسه، اشتد مرضه عليه، فَقَدَ عقله، ففقد حكمه، وحتى فقد جسده، فذهبت روحه لبارئها وخالقها، وذهب جسده من رأس التين لقلعته. وهناك بُنِيَ قبره وانتهى عصره، وجاءت سلالته.

* * *

المؤلف في سطور

موثق تاريخي وباحث في الجغرافيا السياسية

مؤلفاته

- جمال حمدان وعبقرية المكان، مكتبة الإسكندرية، 2014.

واشترك في إعداد المواد الوثائقية

- الدفتر خانة: دار المحفوظات العمومية، مكتبة الإسكندرية، 2011.
- اليخت محروسة، مكتبة الإسكندرية، 2014.
- مجلس النواب، مكتبة الإسكندرية، 2016

مشاركات في كل من:

- كاتب ومحرر دائم في مجلة ذاكرة مصر المعاصرة، التي تصدر عن ذاكرة مصر المعاصرة، بمكتبة الإسكندرية.

- كاتب بمجلة رؤيتنا لمصر ومركز البديل للتخطيط والدراسات الاستراتيجية
- كاتب بمجلة المصور
- كاتب بجريدة أمواج
- كاتب بموقع صلة اللبناني
- كاتب بجريدة العرب اللندنية
- كاتب بموقع أخبار الساعة
- كاتب بموقع عابر
- كاتب بجريدة عاجل.
- مجلة إيجي ما تكس، العدد الثالث.

المحتويات

إهداء 5

ليل العتمة 7

غيبوبة 10

غفوة 15

خياشيم 19

الجلسة 23

المتاهة 26

العزاء 29

النهاية 31

المُقيد 34
قميص الأفراح 37
المأسور 39
الأتوبيس 45
العرس 49
دون اتجاه 53
هواجس قلم 57
أفكار عابثة 60
مدينة السر 63
محمد علي.. الإمبراطور الذي هوى 65
المؤلف في سطور 73